

ملف

صوراً

## قراءات في الحركة الإسلامية في الحرب السورية

يُنشر هذا الملف بالتعاون بين مجلة صور ومركز دراسات الجمهورية الديمقراطية

قراءة في ظاهرة «أسلمة» الثورة السوريّة

طارق عزيزة

حركة أحرار الشام الإسلاميّة.. بين الجهاديّة والإخوانيّة

راتب شعبو



مركز

دراسات

الجمهورية

الديمقراطية

ملف على إصدارين

٢٠١٦-٤-١٥



## حركة أحرار الشام الإسلامية: بين الجهادية والإخوانية

راتب شعبو

### مقدمة

في المجال الفكري والسياسي والتنظيمي الفاصل بين تنظيم القاعدة وجماعة الإخوان المسلمين وجدت حركة أحرار الشام مكاناً لها. وسعت إلى أن تنهج لنفسها طريقاً متميزاً بقدر ما تسمح هذه المسافة القلقة بين السلفية الجهادية والإخوانية. استطاعت الحركة أن تثبت وجودها في سوريا وأن تنمو وتكتسب قوةً وشعبيةً واسعةً رغم حداثة عهدها ورغم (وربما بسبب) عدم اتكائها على تنظيماتٍ مكرّسةٍ سلفاً، أكانت تنظيماتٍ محليةً أو خارجية، ورغم احتفاظها بالتمايز أيضاً عن الجيش الحرّ، في وقتٍ كان فيه هذا الوليد العسكري السوري يحظى باهتمامٍ ودعمٍ إقليميٍّ ودوليٍّ.

واللافت أن الحركة استطاعت أن تنهض من نكسةٍ كبيرة، تمثلت في مقتل معظم أفراد الصف الأول والثاني من قياديينها وشرعيتها في حادثة رام حمدان، التي لا تزال غامضةً إلى اليوم، وقضى فيها نحو خمسين من قياديينها وكوادرها في (٢٠١٤/٩/٩). استطاعت الحركة امتصاص الصدمة واختيار قيادةٍ بديلةٍ ومواصلة نهجها، ما مكّنها من الحفاظ على الرأسمال الرمزي للقادة الراحلين واستثماره.<sup>(١)</sup>

السؤال الذي يحرك البحث هنا هو: كيف حازت حركة أحرار الشام الإسلامية حضورها الوازن ونجحت في استثمار الريح الإسلامية التي شملت الثورة السورية؟

### رعاية إقليمية؟

يمكن الاستدلال على إجابة عن السؤال السابق بشأن بروز وانتشار حركة أحرار الشام من ملاحظة العلاقة المميزة للحركة مع كلٍّ من تركيا<sup>(٢)</sup> وقطر، وهما البلدان اللذان تربطهما علاقةً وثيقةً مع جماعة الإخوان المسلمين. لماذا يعمل هذان البلدان على مساندة حركةٍ مغايرةٍ لحركة الإخوان المسلمين؟ لماذا لا يراهن البلدان على "جماعتهما" بدلاً من التعويل على حركةٍ بديلةٍ؟

في دراسةٍ لمعهد كارنيغي عن الإخوان المسلمين السوريين، تناولت تفاعل الجماعة مع الثورة حتى شهر أيار/مايو (٢٠١٣)، بعنوان "الصراع من أجل التكيف: جماعة الإخوان المسلمين في سورية الجديدة"<sup>(٣)</sup>،

١- في دراسة صادرة عن مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، بعنوان "أحرار الشام بعد عام طويل"، في ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، يتناول الباحث أحمد أبازيد تاريخ حركة أحرار الشام خلال سنةٍ من مصرع قادتها. وتظهر الدراسة قدرةً لافتةً للحركة على امتصاص الصدمة واختيار قيادةٍ بديلة، في وقتٍ نعت فيه كتاباتٌ عديدة الحركة واعتبرت حادثة رام حمدان بمثابة ضربةٍ قاضية.

٢- من المعروف أن الحركة تتخذ من تركيا مقراً لمكاتبها، وتتحكم بمعبر باب الهوى على الحدود التركية السورية. ومن مؤشرات العلاقة المميزة بين الحركة وتركيا قبول الحركة بحقّ تركيا في التدخل شمال سوريا لمنع نشوء دولةٍ كردية، وإعلان الحركة استعدادها لمساعدة تركيا في حماية أمنها ومستقبلها، رغم ما جلبه لها هذا الموقف من انتقادٍ حادٍ من جبهة النصر واعتبارها جماعة الأحرار "عملاء الخارج، ورسول المرتدين" وصولاً إلى

التكفير. <http://www.turkpress.co/node/10380>

٣- معهد كارنيغي، "الصراع من أجل التكيف"، <http://goo.gl/FjSIgw>

تظهر مدى ركاكة التنظيم العجوز في الاستجابة لواقع متحرّكٍ كالواقع الذي فجّرتة الثورة السورية: "الجماعة تفتقر إلى أيّ قدرة على السيطرة على الأحداث على الأرض". أحد الشباب المتعاطفين مع الإخوان وينتمي إلى عائلة إخوانية يصف الجماعة بأنها "نادٍ للمتقاعدين". ويمكن اعتبار بروز "مجموعة العمل الوطني من أجل سوريا"، التي كان أحمد رمضان وعبيدة نحاس من أبرز عناصرها، بمثابة حركة احتجاجٍ شبابيةٍ ضد تنظيمٍ شائخٍ من حيث عمر قاداته وابتعادهم المزمّن عن الواقع السوريّ من جهة، ومن حيث تردّدهم في الاستجابة للانفجار السوريّ، من جهةٍ أخرى.

عملت الدول الإقليمية الساعية إلى حماية نفسها من ارتدادات ومفاعيل الحدث السوريّ على دفع الثورة السورية باتجاه إحداث تغييرٍ إسلاميٍّ في سوريا. وأدركت هذه الدول أن الإخوان المسلمين حسانٌ خاسر، أو، على الأقلّ، حسانٌ لا يسعه أن يكون الرهان الأول، وأن القدرة الخارجية للإخوان في المنفى لا تقابلها قدرةٌ داخلية، بعد أن هزمت الجماعة داخل سوريا في ١٩٨٢، ولوحقت أمنياً وقانونياً (القانون ٤٩ الذي يعاقب بالإعدام أيّ منتبٍ إلى الجماعة). فضلاً عن أن الجماعة تحمل عقدة العمل المسلح منذ ثمانينات القرن الماضي<sup>(٤)</sup>، في الوقت الذي كان الحلّ العسكريّ مع نظام الأسد هو الحلّ الوحيد في نظر كثيرين، ومنهم مؤسسو أحرار الشام.

على هذا يصبح من المنطقيّ أن تعمل هذه الدول على تشكيل، أو بالأحرى دعم، تنظيمٍ جديد. التنظيم الإسلاميّ الذي يمكن أن يخدم الغاية يجب أن يكون جديداً، أي متحرّراً من أعباء الخلافات الداخلية المتراكمة وخطوط الانقسام التي تعتمل في التنظيمات القديمة وتشل فاعليتها؛ ويجب أن يكون مرناً في صيغته التنظيمية فلا يحتاج العضو إلى أشهرٍ كي يُبَيِّت في أمره؛ كما يجب أن يكون ريفياً أكثر منه حضرياً نظراً إلى أن الزخم الثوريّ تركّز في الريف حيث الحضور الأمنيّ للنظام أقلّ وحيث البيئة أكثر ملاءمةً للعمل العسكريّ ضدّه. كلّ هذه الشروط غائبة، في الواقع، عن تنظيم الإخوان المسلمين، ولذلك جرى العمل على دعم تنظيمٍ شبابيٍّ جديد. وكان من المهم أن يتحرّر التنظيم الجديد، إلى ذلك، من تبعات القاعدة، لما يمكن أن تجرّ الصلة مع القاعدة من أعباء وحمل وزر ماضٍ سيئٍ الصيت في نظر المجتمع الدوليّ، وكذلك القسم الأكبر من الجمهور السوريّ.

ما سبق جعل أحرار الشام، الذين يسعون إلى توطيد أنفسهم بصيغةٍ مستقلةٍ يتمايزون بها عن الذهنية القاعدية أو الإخوانية، حسان الرهان بالنسبة إلى هذه الدول، ولا سيما تركيا وقطر. وكان في هذا ربحٌ وخسارةٌ للتنظيم الجديد؛ يتجسّد الربح في المقبولية الشعبية العامة من جهةٍ والدعم الإقليميّ من جهةٍ أخرى، والخسارة هي وقوع الحركة الدائم بين قوّتي شدّة؛ الأولى هي الإسلامية الجهادية العالمية ممثلةً في الدولة الإسلامية (داعش) وجبهة النصرة، والثانية متمثلةً في قوئٍ غير جهاديةٍ (مظلة الجيش الحرّ، وقوى المعارضة السياسية). يمكن، والحال هذا، النظر إلى تاريخ الحركة على أنه المسار الذي رسمته أحرار الشام تحت تأثير محصلة قوى الشدّة هذه خلال سنوات الثورة. وسوف نستبق البحث بالقول إن الميل العام لمسار الحركة، من حسان عبود (منذ تاريخ إعلان الحركة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، حتى أيلول/سبتمبر ٢٠١٤) إلى هاشم الشيخ

٤- معهد كارنيغي، "الصراع من أجل التكيف"، المصدر السابق: حتى بعد أن حسم الإخوان المسلمون أمرهم في آذار/مارس ٢٠١٢ بدعم العمل المسلح ضد النظام السوري، وتشكيل ما أطلق عليه "هيئة دروع الثورة"، ظلت الجماعة تنتكر لها. وبعد أن أعلن ملهم الدروبي، في آب/أغسطس ٢٠١٢، أن الجماعة قد شكلت وحداتها المسلحة، سارع المراقب العام للجماعة رياض الشقفة إلى إنكار هذا ببيانٍ رسميٍّ، قائلاً إننا ندعم المعارضة المسلحة ولكن "هذا لا يعني أن لدينا وحداتٍ خاصّةً بجماعة الإخوان".

(أيلول/سبتمبر ٢٠١٤ – أيلول/سبتمبر ٢٠١٥) إلى مهند المصري (أيلول/سبتمبر ٢٠١٥ – حتى الآن) كان باتجاه الانفكاك، في النظرة العامة وفي السلوك واللغة، عن السلفية الجهادية والاقتراب لا من قوى الثورة، كما تشير دراسة "أحرار الشام بعد عامٍ طويلٍ" لأحمد أبازيد، بل من الإخوانية بصفتها التعبير الإسلامي الذي يحرص على القبول العامّ والعالميّ (براغماتيةً أو تقيّةً) مع "جهادية" بمقاييس واعتباراتٍ محليةٍ أساساً، بما يجعلها أكثر استيعاباً لفاعليات الانتفاضة ضد النظام السوري. وقد وصل التحول الإخواني للأحرار حدّاً جعل المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا، محمد حكمت وليد، يقول بوجود "قواسم مشتركة بين الجماعة والحركة، ما يجعلها أرضاً خصبة لتعاونٍ كبير، وفرصةً لخلق التكامل بين السياسي والعسكري"<sup>(٥)</sup>، وقد شاع حينها الحديث عن اندماج بين الأحرار والإخوان. غير أن الأحرار لم يعلقوا لا على العرض الإخواني ولا على إشاعات الإندماج، ما دفع المكتب الإعلامي للإخوان إلى نفي العرض واعتبار أن المراقب العام كان يتحدث عن "رؤية للتكامل ما بين السياسي والعسكري، وما بين الجماعة وبقية الفصائل على اختلافها وتتوّعها، ولم يقتصر الحديث على فصيلٍ محدّد".

### الابتعاد عن النهج القاعدي

تقول حركة أحرار الشام الإسلامية عن نفسها، في ٢٤/٨/٢٠١٥، إنها "حركة إسلامية سورية أصيلة، انبثقت من الشعب السوري للدفاع عنه وعن مصالحه وهويته"<sup>(٦)</sup> (...) وتعتمد الحركة في بنائها الأساسي والقيادي على أبناء الشعب السوري، وليست لها علاقة تنظيمية بأيّ أطرافٍ خارجيةٍ بما فيها تنظيم القاعدة"<sup>(٧)</sup>. وبكلام أبو عبد الله الحموي، زعيم أحرار الشام الذي قضى في حادثة رام حمدان: "إن أحرار الشام ليست قاعدة ولا إخوان ولا حزب تحرير ولا حتى تتبع للجيش الحر"<sup>(٨)</sup>.

على أن النمو السريع الذي تميّزت به الحركة، والإنجازات العسكرية التي حققتها خلال فترة قياسية، تشير السؤال، وتبرز قول بعضهم بأنها واجهة "معتدلة" لتنظيم القاعدة، أو إنها إحدى جماعات تنظيم القاعدة غير الرسمية، مستندين إلى أنها تأسست بمباركة ومشاركة مندوب الظواهري إلى سوريا أبي خالد السوري، الذي اغتيل في تفجير في حلب في (شباط/فبراير ٢٠١٤) على يد انتحاريين من داعش حسبما هو شائع. كما يستندون إلى أن الظواهري سبق أن وضع، في تسجيل صوتي له، قائد أحرار الشام، حسان عبود (أبو عبد الله الحموي) في المرتبة نفسها مع أبي محمد الجولاني وأبي بكر البغدادي<sup>(٩)</sup>. والحق أنه لا يخلو الأمر من مستندات لهذا القول، فالحركة كانت في علاقة مميزة وتحالفات متكررة مع جبهة النصرة كما هو معلوم<sup>(١٠)</sup>،

٥- موقع عربي ٢١، "إخوان سوريا يعلنون عن رغبتهم التكامل مع "أحرار الشام"، <http://goo.gl/htQyWP>

٦- تبقى قضية "الهوية" النقطة الجامعة لدى شتى صنوف التيارات الإسلامية التي ترى الهوية معطى منتهياً تجب صيانته، وليست عمليةً تطويريةً منفتحةً على الاعتناء والتفاعل. في ميثاق الجبهة الإسلامية السورية، التي كانت كتائب أحرار الشام أهمّ مؤسسيها، يأتي هدف "المحافظة على الهوية الإسلامية في المجتمع" في الترتيب الثالث، بعد إسقاط النظام وتمكين الدين في الفرد والمجتمع والدولة. ويلفت النظر حرص الميثاق على إضافة صفة "حضاري" إلى المجتمع الإسلامي الذي تصبو إليه الجبهة، دون أن يدرك القارئ المحتوى المقصود من هذه الصفة.

٧- أحرار الشام بعد عامٍ طويلٍ (الملحق ١)، مصدر مذكور سابقاً.

٨- موقع عربي ٢١، فيلم وثائقي لـ"الجزيرة" عن "أحرار الشام" (فيديو) <http://goo.gl/GY1cqO>

٩- قناة المنار، زلزال رام حمدان يقضي على "أحرار الشام"... نهاية حلم الظواهري في سوريا، <http://goo.gl/Vc5UX4>

١٠- عدا عن العليقات العسكرية المشتركة الكثيرة، وأهمها عملية السيطرة على معسكري الحامدية ووادي الضيف، وعن التحالف ضمن "جيش الفتح"؛ جمع جبهة النصرة وأحرار الشام موقف رفض "اتلاف قوى الثورة والمعارضة السورية" والتوافق على "تأسيس دولة إسلامية عادلة"، ما أسهم في زعزعة شرعية الائتلاف بوصفه الممثل السياسي للثورة في الخارج.

وتعاونت الحركة مع داعش في إدارة معبر تل أبيض على الحدود مع تركيا. وبحسب رواية قائد كتائب فاروق الرقة محمد الضاهر "أبو عزام"، استولت داعش على المعبر من كتائب الفاروق بالقوة وسلمته إلى أحرار الشام بشكلٍ جزئيٍّ ليصبح الطرفان مسؤولين عن المعبر<sup>(١١)</sup>.

لكن، بعيداً عن التحليلات الظنية التي تذهب عكس ما تصرّح به الحركة عن نفسها، تميّزت أحرار الشام عن القاعدة عسكرياً باعتمادها العنصر السوري أساساً، وزاد اعتمادها عليه مع الوقت (ولهذا، بلا شك، بعده السياسي والفكري). ومن الواضح أن الحركة استفادت في البداية من الخبرة العسكرية المتراكمة من الجهاد في العراق وأفغانستان لدى بعض من انخرط فيها وكان بينهم أجنب<sup>(١٢)</sup>، فقامت بعملياتٍ عسكريةٍ كبيرةٍ لافتة، شدّت إليها الأنظار وفتحت لها منابع التمويل. وتميّزت الحركة بالاعتماد الكبير على العبوات النافذة ذات الفعالية، وهي الطريقة التي جرى نقلها من خبرة الجهاد في العراق، وزوّدت الحركة تشكيلاتٍ عسكريةٍ أخرى بها، كما يرد في فيلم الجزيرة الأنف الذكر. ويلفت النظر، من الناحية العسكرية، أن الحركة لا تعتمد العمليات الانتحارية (أو على الأقل لا تجاهر بها)، وهي تسمّي هذه العمليات انتحاريةً وليس استشهاديةً، ما ينطوي على بعدٍ شرعيٍّ مختلفٍ عن شرع تنظيم القاعدة.

حافظت أحرار الشام الإسلامية على مسافةٍ سياسيةٍ لها عن تنظيم القاعدة، فهي تؤكّد على سوريّتها وتبتعد عن النهج الأمميّ الإسلاميّ في رهن سوريا لسياق جهادٍ عالميٍّ، فتتّظر إلى سوريا كوطنٍ وتعتبر من مهامها "إنشاء جيشٍ وطنيٍّ" (وليس إسلامياً)<sup>(١٣)</sup>، ولا تعتمد المظهر الأفغانيّ في اللباس، ولا تضع شعاراتها في الجوامع، وتحترم مظهر وعادات ونمط عيش الأهالي، وهي في هذا أقرب إلى الإخوان المسلمين. فضلاً عن أن غالبية "أحرار الشام" يمتلكون اعتباراً ملحوظاً تجاه روح العصر في مظهرهم وممارساتهم.

ثمة في الفكر القاعديّ إدارة ظهرٍ واضحةٍ للعالم، بكلّ معاييرهِ وتوافقاتهِ وسياساته. إما أن يكون العالم على صورتنا أو نحاربه حتى يصبح كذلك. هذه الثنائية، التي تقسم العالم إلى "فسطاطين"، تضع التنظيمات القاعدية في مواجهة العالم ككلّ، فلا مجال للمفاضلة بين الدول في درجة السوء، تماماً كما لا توجد منزلةٌ بين الكفر والإيمان. وفي حين يشكّل هذا الاعتبار القصويّ إغراءً للقلوب المعذبة التي تشدها الإطلاقيات، وهذا أحد جوانب جاذبية التنظيمات القاعدية للجيل الشاب، فإن هذا الاختزال الشديد يحكم على التنظيمات القاعدية بالعزلة التامة والفشل الأكيد في النهاية.

١١- أوريينت نت. حرب المعابر: معارك بين مقاتلي الدولة الإسلامية وكتائب الفاروق. [http://www.orient-news.net/ar/news\\_show/4229](http://www.orient-news.net/ar/news_show/4229)

في كلّ حال، لم يكن للحركة موقفٌ حدّيّ من داعش. إذ يكتفي بيانٌ صدر عن الحركة في ٢٠١٥/٨/١١ بشأن المنطقة الآمنة في شمال سورية، بوصف جرائم داعش في حقّ الثورة بـ"الحماقات". ويقول أحد مقاتلي أحرار الشام بعد تحوّلهِ إلى لاجئٍ في أفجة قلعة (تركيا) عقب هزيمة الحركة أمام داعش في تل أبيض (وهو من أبناء تل أبيض): "كان من الممكن أن نهزم داعش، لكن قادتنا كان لهم سياسة أخرى"، متهماً قادته بـ"الخبانة": "كانوا يصدرون أوامر بالانسحاب دون الاشتباك مع داعش. في البداية رفضنا إطاعة تلك الأوامر، لكننا حوصرنا في النهاية واضطررنا للانسحاب".

<http://www.alwasatnews.com/news/886260.html>

١٢- حازم السيد، "السلفية الريفية الصاعدة في سوريا: حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً"، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية: "يتضمن موقع الحركة تبويهاً خاصاً بالشهداء نشرت فيه صوراً لشهداء أجنب من الحركة، ولم تبد الحركة امتعاضاً من هؤلاء المقاتلين في أي يوم، ولكنها لم تعمل على التحول إلى بؤرة لاستقطابهم تحسباً للضريبة الإعلامية والسياسية التي يمكن أن تلحق بالحركة بسبب وجودهم". <http://goo.gl/C6A9gl>

١٣- على أن التعارض المتأصل بين صفتي الوطنية والإسلامية يحيل الكلام عن جيشٍ وطنيٍّ على لسان الإسلاميين إلى نوع من التورية.

ابتعد تنظيم أحرار الشام في سوريا عن النهج القاعديّ، وحرمه هذا الابتعاد من الجاذبية المذكورة، وتركه تحت ضغط المزايدة الجهادية الإسلامية المستمرة، ولكنه أعطاه امتيازاً أهم جعله يحوز مقبوليةً أكبر لدى المجتمع الدوليّ، وهذا ما شهدناه في نجاته من التصنيف ضمن التنظيمات الإرهابية، وفي دعوته إلى مؤتمر المعارضة السورية في الرياض (كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥)، وقبوله كشريكٍ في مفاوضات التسوية في جنيف. ولا يخفى على المتابع أن بيان انسحاب الحركة من مؤتمر الرياض "بسبب ضعف تمثيل الفصائل المجاهدة، ووجود شخصياتٍ لا يخفى انتماؤها للنظام السوري"<sup>(١٤)</sup>، ثم عدول الحركة عن الانسحاب وتوقيعها البيان الختاميّ، جاء تحت تأثير قوتي الشدّ المذكورتين آنفاً على حركة أحرار الشام التي واطبت على محاولة إمساك العصا من المنتصف.

فضلاً عما سبق، حافظت حركة "أحرار الشام" على مسافةٍ تنظيميةٍ وفكريةٍ عن الجيش الحرّ، فهي لم تلتزم علم الاستقلال الذي بدأ ظهوره في المظاهرات المناهضة للنظام منذ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، تماماً كما لم تلتزم علم القاعدة. ورغم أن أحرار الشام قبلوا أن تُنسب العمليات العسكرية التي كانوا يقومون بها إلى الجيش الحرّ في نشرات أخبار قناة الجزيرة، إلا أنهم في الواقع كانوا أقرب إلى القاعدة خلال معظم جولات الصراع. وقد اتخذت الحركة موقف المتفرّج من عمليات التصفية التي تعرّضت لها كتائب تنسب نفسها إلى الجيش الحرّ على يد جبهة النصر التي كانت تتجاوز التسويات والمصالحات التي ضمنتها أحرار الشام. جرى ذلك في تصفية النصر لجبهة ثوار سوريا، إذ وقف أحرار الشام على الحياد، وفي الهجمة المماثلة للنصرة على حركة حزم، والتي لم تتوقف رغم اتفاق الهدنة الذي رعته الحركة وعجزت عن إلزام النصر باحترامه، حتى أعلنت "حزم" حلّ نفسها مطلع آذار/مارس ٢٠١٥.

يذكر سلوك أحرار الشام هذا بسلوكها خلال صراع الفصائل في الرقة عادة إخراج النظام منها. ففي دراسة "الرقة: من عبادة الأسد إلى سيف الدولة الإسلامية" يقول الكاتب: "كان هناك نوعٌ من التواطؤ الصامت بين أحرار الشام والنصرة، حيث تركت أحرار الشام النصر، ولاحقاً الدولة، تظهر بمظهر الأخ الشرير لتظهر هي رحيمة أمام تشدد الآخرين"<sup>١٥</sup>.

### مسعى مضطربٌ للحفاظ على التمايز

كانت كتائب أحرار الشام من أوائل التشكيلات التي حملت السلاح (أيار/مايو ٢٠١١) بحسب زعيمها حسّان عبود الملقب بأبي عبد الله الحموي<sup>(١٦)</sup>، ولكن دون الإعلان عن نفسها حتى (تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١). وهذا يفسر توفر الحركة (اندماج أربع جماعاتٍ هي جماعة الطليعة الإسلامية، وحركة الفجر الإسلامية، وكتائب الإيمان المقاتلة، وكتائب أحرار الشام) على حوالي ٢٥ ألف مقاتل (الغالب أن الرقم مبالغٌ فيه درجاً على عادة الفصائل في المبالغة في أعدادها) عند إعلان التأسيس<sup>(١٧)</sup>. وينسجم هذا القول أيضاً مع قناعةٍ عبّر عنها أحد مؤسسي الحركة الملقب أبو يزن الشامي (محمد الشامي)، وهي أن النظام السوري لا يمكن أن يرحل

١٤- بيان انسحاب حركة أحرار الشام من مؤتمر الرياض. <http://goo.gl/dIO3wY>

١٥- خلف علي الخلف، "الرقة: من عبادة الأسد إلى سيف الدولة الإسلامية"، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية. <http://drsc-sy.org/wp-content/uploads/2015/07/KHALAF.pdf>

١٦- مقابلة قائد أحرار الشام مع تيسير علوني، <https://www.youtube.com/watch?v=GRPb4nFU2UA>

١٧- حركة أحرار الشام الإسلامية: المكونات والنشأة، <http://goo.gl/zwdwx6>

إلا بالعنف، وأن التريث في استعمال السلاح في فترة المظاهرات السلمية كان الغرض منه أن يقتنع الناس بأنفسهم أن السبيل السلمي مع هذا النظام لا أفق له للنجاح<sup>(١٨)</sup>.

وفي حين كانت التشكيلات العسكرية التي راحت تتشكل، بعد حوالي ستة أشهر من انطلاق الثورة السورية، تنضوي، ولو بالتسمية، تحت اسم الجيش الحر؛ فإن أحرار الشام كان التشكيل الأول الذي سبق في تشكله نشوء ظاهرة الجيش الحر، ورفض الانضواء تحت هذا الاسم، مع قبول أن تنسب العمليات العسكرية التي كان يقوم بها إلى الجيش الحر إعلامياً، كما أسلفنا<sup>(١٩)</sup>.

وقد شارك الأشخاص الذين سيصبحون في ما بعد قادة تشكيلاتٍ عسكرية في حركة أحرار الشام الإسلامية، في المظاهرات في المرحلة السلمية من الثورة. وحين عادت المظاهرات، بعد صمود الهدنة في سوريا منذ (٢٧ شباط/فبراير ٢٠١٦)، تمايز موقف أحرار الشام عن موقف جبهة النصرة. ففي حين عملت النصرة على تفريق مظاهرة في معرة النعمان في إدلب ومنعت رفع علم الثورة، أيدت حركة أحرار الشام المظاهرات ورفع علم الثورة، ما أثار خلافاً مع الجبهة. واعتبرت أحرار الشام أن لا تعارض بين راية التوحيد وراية الثورة، وأن "من أهان العلم الذي اختاره شعبنا المسلم فقد عرّض نفسه للإهانة"<sup>(٢٠)</sup>.

بين موجة المظاهرات السلمية في بداية الثورة وموجة المظاهرات الثانية اليوم، شهدت حركة أحرار الشام تبديلاً فكرياً سياسياً قاد من المطالبة بـ"أن يكون الدين الإسلامي السنّي دين الدولة والمصدر الوحيد للتشريع"، كما جاء في ميثاق الجبهة الإسلامية التي تشكلت أواخر (٢٠١٣) وتولت حركة أحرار الشام قيادة المكتب السياسي فيها، إلى "نحن نؤمن أن سورية تحتاج إلى مشروع وطني جامع لا يمكن أن تتحكّم به أو تنجزه جهة أو جماعة واحدة، ولا يجب أن يرتبط الحل بايديولوجيا واحدة"، كما جاء في مقالة مدير مكتب العلاقات الخارجية للحركة، لبيب نحاس، والتي نشرتها الواشنطن بوست (١٠ تموز/يوليو ٢٠١٥).<sup>(٢١)</sup>

الحق أن الكثير من قيادات أحرار الشام امتاز بالقابلية للتطور ونقد الذات، وهذا ما جعل الخطّ العامّ لمسار الحركة تطورياً، من منظور الثورة السورية، يبتعد أكثر عن السلفية الجهادية، حتى عن النسخة المحلية منها، ليتجه إلى فهم إسلامي أكثر اعتدالاً. من اللافت مثلاً اعتذار أبو يزن الشامي عن سلفيته مخاطباً أهل الشام: "نعتر لكم لأننا أدخلناكم في معارك دنكوشوتية أنتم في غنى عنها، وأعتذر عن تمايزي عنكم وانغلاقتي الفكري، بحجة أنني من السلفية الجهادية"<sup>(٢٢)</sup> ويقول: "أنا كنت سلفياً جهادياً، وحُبست على هذه التهمة، واليوم أستغفر الله وأتوب إليه"<sup>(٢٣)</sup>.

١٨- فيلم الجزيرة عن أحرار الشام، مصدر سابق.

١٩- ترجّح أن تكون موافقة الحركة على هذا جاءت تحت ضغط الرعاية القطرية بغرض المحافظة على زخم الثورة بتضخيم فاعلية الجيش الحر الذي كان يحوز على قبول شعبي واسع، والاطمئنان، في الوقت نفسه، إلى أن طبيعة القوة الحقيقية على الأرض هي "إسلامية قطرية" إن صحّ القول.  
٢٠- كلام لعضو شوري أحرار الشام أبو عزام الأنصاري. ويتابع الأنصاري قائلاً: "قرر ثوارنا الذين خرجوا من المساجد رفع علم ثورتنا، وحادثه حرارتنا بأياديهم الطاهرة، وكفنا به شهداءنا. ونقول للمزاوديين: ليس لأحد في هذه الثورة منة على أحد، فإن كان ولا بدّ فلعموم المسلمين فضل علينا،

ولهم منا واجب النصرة والاحترام والتقدير." <http://www.newscenter.news/ar/news/view/15365.html>.

٢١- يعجز السيد لبيب نحاس أن يواظب على هذه اللغة، فهو يقترح على أميركا، في المقال نفسه، أن تكون أحرار الشام هي "البديل السنّي المحلي".

٢٢- الدرر الشامية. أبو يزن الشامي يعتذر لأهل الشام ومجاهديها ويوجه رسالة إلى المقدسي والمحبيسي. <http://eldorar.com/node/58862>.

٢٣- من صفحة دمشق الآن على الفيسبوك. <https://www.facebook.com/Damascus.Now1/posts/543344559130112>.

ولكن ما تقدّم لا ينفى الحديث عن وجود ثلاثة تياراتٍ داخل الحركة، يقف على رأس التيار المعتدل زعيمها الحاليّ "أبو يحيى الحموي" ومعه لبيب نحاس، وهو يدعو إلى التخلي عن الهوية السلفية والتعاون مع المجتمع الدوليّ. وعلى رأس التيار المتشدد (القريب من النصر) يقف القائد العسكريّ العامّ "أبو صالح طحان" والشرعيّ العام للحركة "أبو محمد الصادق"، الذي رفض الهدنة التي فرضت في (٢٧ شباط/فبراير ٢٠١٦)، تضامناً مع جبهة النصر التي استنثيت منها، معتبراً أن مواصلة القتال واجبٌ دينيٌّ حتى قيام "الدولة الإسلامية". وفي اتجاه التضامن مع النصر يأتي أيضاً تصريح الطحان: "لئن تزهق أنفسنا جميعاً خير لنا من أن نسلم أخاً نصرنا حين عز النصير"<sup>(٢٤)</sup>. وتيار الوسط الذي يمثله أبو جابر الشيخ الذي يحاول منع التصادم والحفاظ على وحدة الحركة.

ولئن كان "اعتدال" الأحرار من الأسباب التي قرّبتهم إلى الجمهور الثائر، فإن من طبيعة الجهاد الإسلاميّ أن باب الغلوّ فيه مفتوحٌ على الدوام، وليس من السهل أن يصمد المعتدلون أمام جاذبيته، ولا سيما إذا بدا الظلم مستحكماً، وقيض للغلوّ أن يمتلك القدرات المادية. الأمر الذي يمكن أن يفسّر هزيمة الحركة أمام الدولة الإسلامية (داعش) في الرقة، ووجود دائمٍ لتيار "نصراويّ" داخلها. ففي الرقة هزمت الحركة على يد داعش لأن مقاتلي الأحرار رفضوا، بسبب اعتدالهم وضعف استلابهم الأيديولوجي للحركة، قتال من يرفعون راية الإسلام.<sup>(٢٥)</sup> وفي الحسكة والرقة ودير الزور بايع الكثير من مقاتلي الأحرار داعش، إلى جانب الكثير من مقاتلي النصر أيضاً. ففي الجهاد تكثر المزايدات وتزداد القوة المعنوية للتنظيم كلما زاد في الغلوّ.

بعد أن وقّع الأحرار ميثاق الشرف الثوريّ الذي يضمن احترام حقوق الإنسان في إطار دولة العدل والقانون والحريّات، فضلاً عن التمسك بالنسيج السوريّ الاجتماعيّ المتنوّع بكافة أطيافه العرقية والطائفية، مع ترك مرجعية تحديد نمط الحكم بعد سقوط النظام للشعب السوري<sup>(٢٦)</sup>؛ اتهمت النصر الموقّعين بأنهم غلبوا "روح الوطنية وروح المواطنة والانتماء إلى التراب والوطن على الأخوة الإيمانية"، مما اضطرّ حسان عبود إلى الردّ بتغريدةٍ على تويتر: "إن قيام دولة إسلامية عادلة راشدة هو هدف استراتيجي غائي عندنا. ومن زعم أننا فتنّا في ديننا وبعنا ذمنا بعرضٍ من الدنيا فهذه دعدشة نعرفها من أخرج"<sup>(٢٧)</sup>.

### الدائرة الإسلامية المغلقة

ظلّ ما أشرنا إليه من تحوّلٍ في مسار حركة أحرار الشام ضمن الدائرة الإسلامية وما نتيجته. فتحت تأثير التحوّلات التي شهدتها مسار الحراك السوريّ نفسه، سواء تحولاته الداخلية أو تحولات المشهد الدوليّ من حوله، ابتعدت الحركة عن الجهادية العالمية لصالح صيغةٍ إسلاميةٍ أكثر قابليّةً لاستيعاب روح العصر. ولكنها، كحركةٍ إسلاميةٍ، تبقى رهينة محبستها الخاص. فحسان عبود، زعيم الحركة الذي ينظر إليه على أنه قطب الاعتدال فيها، وتذهب تحليلاتٌ إلى أنه كان العقبة في وجه سيطرة جبهة النصر على ريف إدلب، حتى أن هناك من شكّك في أن تكون النصر وراء مقتله مع زملائه؛ يؤكّد "على ضرورة التعايش بين أبناء الوطن

٢٤- عمر كايد، "هدنة سورية تفجّر خلافات بين أحرار الشام وتهدّد جيش الفتح بالنفك"، الحياة ١١ آذار/مارس ٢٠١٦.  
٢٥- فيلم للجزيرة عن أحرار الشام، مذكور سابقاً. وذكرنا أعلاه أن هناك مقاتلين من أحرار الشام يتهمون قياداتهم بالتخاذل أمام داعش. النتيجة واحدة. كان الضعف النفسيّ أمام داعش من القادة أم من المقاتلين.

٢٦- مركز الشرق العربي، ميثاق الشرف الثوريّ: بنوده وبعض ردود الفعل عليه. <http://goo.gl/v7prx9>

٢٧- فادي الداووك، ربطات عنق أحرار الشام. المدن. <http://goo.gl/QOkqQP>



الواحد مهما اختلفت مشاربهم وعقائدهم، ويترتب على ذلك حقوقٌ وواجباتٌ متبادلة، وتجعل أصل حرمة الدماء والأموال والأعراض مشتركاً بين الجميع"، ولا مساس بشيءٍ من هذا إلا وفق "أحكام الشريعة الإسلامية"، وهذا ينتهي بالفعل إلى تكريس ذممة مواطنةٍ وسياسيةٍ.<sup>(٢٨)</sup>

في مسعى الحركة لتقديم نفسها بصورةٍ مقبولةٍ للغرب<sup>(٢٩)</sup> يكتب لبيب نحاس في واشنطن بوست الأميركية (١٠ تموز/يوليو ٢٠١٥): "نعتبر أنفسنا جماعةً إسلاميةً سنّيةً نقاتل من أجل تحقيق العدالة للشعب السوري". هذا الجمع بين ما لا يُجمع هو ما يميّز "الإسلام المعتدل"؛ الجمع بين فتوية الحركة "سنّية" وبين "تحقيق العدالة للشعب".

وفي مقالٍ آخر لنحاس في التلغراف البريطانية (٢١ تموز/يوليو ٢٠١٥) يكتب، ضمن المسعى التقاربي مع الغرب: "نحتاج بديلاً سنّياً في سوريا يحلّ محلّ النظام وداعش". تلك هي المعضلة الإسلامية التي نسمّيها "الدائرة المغلقة"، ذلك أن الإسلام لا تفتح على الوطنية أو لا تتواءم معها، فهما ولاءان غير متطابقين، إعلاء أحدهما سيكون بالضرورة على حساب الآخر. من الصعب أن يتحوّل أحرار الشام إلى تنظيمٍ وطنيٍّ، كما يصعب على حزب الله في لبنان أن يتحوّل إلى حزبٍ وطنيٍّ رغم كل إنجازاته "الوطنية".

#### خاتمة

دافع المقال عن فرضية تقول إن جمع حركة الأحرار بين "إخوانية" سياسية و"جهادية" عسكرية هو ما أتاح لها التميّز وجعلها رهاناً واعداً لداعمين إقليميين شكلوا سنداً مادياً ومعنوياً لها. ولا شك أن ميل الأحرار باتجاه الإخوانية السياسية (صيغة إسلامية تقبل الانفتاح على الغرب) من شأنه أن يضعف جاذبية الحركة وروحها القتالية، لأنه يخفّف شحنة العدائية تجاه العالم، فليس غريباً أن الإسلاميين الأكثر تطرفاً هم الأكثر شعبيةً بين المقاتلين "المجاهدين".

رصدت المقالة أيضاً تحرك الأحرار، تحت تأثير معطياتٍ داخليةٍ ودوليةٍ، على خطٍ سياسيٍّ إسلاميٍّ عامٍ يبتعد بهم عن السلفية الجهادية ويقترّب بهم من الإخوانية. مع ملاحظة وقوع الحركات الإسلامية جملةً في إisar دائرةٍ مغلقةٍ، يصعب الخروج من قيدها إلا بالخروج منها إلى دائرةٍ وطنيةٍ منفتحةٍ لا تحنّط هوية المجتمع، فتخنقه من حيث تظن أنها تحميه وتحافظ على هويته.

٢٨- السلفية الريفية الصاعدة في سوريا: حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً، مذكور سابقاً.

٢٩- وهذا مؤشرٌ صريحٌ على نزوع براغماتيٍّ كانت تفنّده الحركة حين قام المبعوث الأميركي إلى سوريا "روبرت فورد"، في ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣، بالاجتماع مع الجبهة الإسلامية وأعلنت رفض الحوار مع الولايات المتحدة الأميركية.